

«التفلسف» بلا ضفاف»

الكاتب



عبدالحسين شعبان

إذا كان أفلاطون يُعرّف الفلسفة بأنها «علم الوجود الحقيقي المتعالي على العالم الظاهر»، فإن تلميذه أرسطو الذي درس على يده حتى بلغ الأربعين، قال عن الفلسفة إنها بحث عن المبادئ الأولى للوجود، فهل مثل هذه الأسئلة الوجودية كافية في إعطاء الفلسفة الأهمية المطلوبة للكشف عن الماهية (الصيرورة)؟ أم أن الأمر يتعلّق بصناعة المفاهيم حسب المفكر الفرنسي جيل دولوز؟

وسؤال الفلسفة هو سؤال التاريخ أيضاً، بشموليته، ولذلك قيل إن الفلسفة «أم العلوم»، أمّا التاريخ فهو «أب العلوم»، وبالطبع لكل علم خواصه، فخواص الفيزياء غير خواص الكيمياء، وكذلك العلوم الأخرى، مثل الفلك والرياضيات والطب والأخلاق والنفوس والاجتماع، وغيرها، ولكل علم حقله وحدوده، حتى وإن تداخلت مع علوم أخرى. أمّا الفلسفة فهي علم الكليات والوجود الإنساني الكوني وليس علم الجزئيات، والعقل هو موضوع الفلسفة الأساسي

وقد سبق سقراط أفلاطون، لكن نصوصه لم تصلنا إلا عبر أفلاطون، وكان سقراط يعتقد أن طريق الفلسفة لا ينتهي، والفلاسفة بتفلسفهم يسعون للوصول إلى الحقيقة من دون أن يدركوها، وهكذا تبقى الفلسفة جوهر البحث عن الحقيقة لأنها تطرح السؤال تلو السؤال، ومن السؤال تتولّد المعرفة الإنسانية، والمعرفة تنتج معارف أخرى تتراكب وتتفاعل وتتراكم على مرّ العصور

وأجوبة العلم تختلف عن أجوبة الفلسفة، الأولى نهائية، أو شبه نهائية، في حين أن الثانية مفتوحة، وليست يقينية، أو مكتملة. وجوهر الفلسفة ليس امتلاك الحقيقة، وإنما تعميق البحث عنها. وإذا تصوّر المرء أنه امتلك الحقيقة، مثلما تذهب إلى ذلك جميع الأيديولوجيات الشمولية التي تدّعي الأفضلية، فإنه يتحوّل من العقلانية والتأمل والبحث المؤرق عن الحقيقة إلى دوغمائية، وجمود، وإيمانية تبشيرية مطلقة العقيدة وراكدة، في حين أن الفلسفة مسار دائم بلا ضفاف،

والفلسفة منذ سقراط تتم من خلال منظور العقل، علماً بأن سقراط لم يترك أية مؤلفات مكتوبة يمكن الرجوع إليها، حيث كان فيلسوفاً شفاهياً يمارس التفلسف الحي والمحاورة. والتفلسف هو منطق العقل. وكان صاحبي يردّد إذا لم أتفلسف فسوف يتفلسف عليّ الآخرون، فدعنا نتفلسف ففي التفلسف نصنع الأفكار

وقد سبقت الرياضيات الفلسفة، وأخذت الأخيرة عنها طرائقها ومنهجيتها، وكتب أفلاطون على باب الأكاديمية الفلسفية في أثينا «لا يدخل علينا إلا من له علم بالرياضيات»، وهذا الأمر له علاقة بصناعة المفاهيم التي أخذت الفلسفة تستخدمها لتحليل الوجود، وفهم ظواهره المتنوعة والمختلفة

وعندما تقول في الرياضيات الدائرة، أو المثلث، أو المربع، فإنك تعبّر عن أشياء موجودة في الكون، محدّدة، دائرية، أو مثلثة، أو مربعة، وهي مفاهيم ذهنية غير مادية، بل أشكال هندسية ومفاهيم رياضية لها علاقة بالنقطة التي تمثّل المسافة المتساوية بين النقطة المعلومة التي هي المركز، وبين أضلاع المثلث أو المربع، والحلاج هو القائل «النقطة أصل كل خط، والخط كلّهُ نقط مجتمعة. فلا غنى للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف هو متحرك». «عن النقطة بعينها، وكلّ ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين

وقد صاغت الفلسفة مفاهيم على الإيقاع نفسه، وإن اختلفت في الدقّة والتحديد، لأن الظواهر الوجودية الإنسانية نسبية مختلفة من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى آخر، لذلك فإن الفلسفة هي نشاط معرفي متميز ومتطور، ولا يعرف الاستقرار مثل الرياضيات، فلا نهاية للفلسفة، وأنها لا تموت أو تندثر، كما جرى الترويج لذلك تساوقاً مع نظرية «نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما، بعد انتهاء الحرب الباردة وتحول الصراع الأيديولوجي من شكل إلى شكل آخر، فتمّ اعتماد نظرية ظفر الليبرالية التاريخي على المستويين، السياسي والاقتصادي، فضلاً عن المستوى الأخلاقي والقيمي، بزعم توقّف التاريخ عند هذه الفاصلة

ولذلك فإن عملية التفلسف تبقى قائمة ومستمرة، أمّا النصوص الفلسفية فإنها شيء آخر، في حين أن التفلسف هو الذي أنتج النصوص، على حدّ تعبير كانط. وقد سار أرسطو المعروف بالمعلّم الأول بالفلسفة نحو المزيد من العقلانية ووضع علم المنطق من أجل ضمان التفكير الصحيح. وإذا كان أفلاطون نحا نحو السماء بتأكيد على القيم والأفكار والمثل العليا، فإن أرسطو توجه إلى الأرض، أي إلى الناس، تعبيراً عن فهم العالم المادي الإنساني

وحسب أوغست كونت، فإن ثلاث مراحل مرّت بها الفلسفة، الأولى – المستندة إلى الميثولوجيا (الأسطورة)؛ والثانية – القائمة على الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة)؛ والثالثة – العلمية؛ لاسيّما بالبحث عن التجربة. وقد جاء الانعطاف الكبير في الفلسفة على يد كانط، حين قدّم تصوّراته عن علوم الطبيعة، وقبل ذلك كان ديكارت شطر الفلسفة إلى قسمين متناقضين، بين تيار مثالي لا يعترف بالتجربة، وتيار تجريبي يعتبر التجربة هي المصدر الوحيد لمعرفة العالم. وتبعه تحوّل مفصلي آخر لدى هيغل من خلال الديالكتيك (الجدل)، وهو ما طوّره ماركس، وصولاً إلى جاك دريدا وميشيل فوكو

drhussainshaban21@gmail.com